الفصل التاسع

وصف قوة الشخصية فى الإيمان

(١)

إننى أكتب هذا للملحدين والمتشككين وغيرهم من الذين يؤمنون بإخلاص ولكن عن خطأ بأنه لا إيمان لهم. وليس لهؤلاء وحدهم أكتب فإنى أريد أن أضع شيئًا فى أيدى مرضاى، لأن كل واحد منهم يعانى من اختلال خطير فى قدرته على الإيمان.

فذوو المتاعب والمشاكل من الناس يعتقدون فى أشياء كثيرة ليست حقيقية ويشكون فى أشياء كثيرة يجب أن يسلموا بالإيمان بها حتى إذا وصل الأمر بهم إلى زيارة الطبيب النفسى لم يدروا بماذا يعتقدون. لقد اختلط عليهم الأمر. فقد تحالفت أنواع الشك على اختلاف أنواعها على اختلال عقولهم. وتستمر هذه العملية فى سيرها حتى يصل بهم الأمر إلى الشك فى قدرتهم على الإيمان بأى شىء أو الاعتقاد فيه. وهنا تثور المشاكل ويقعون فى دوامتها لأن هذا يعنى أنهم فقدوا الإيمان حتى فى الإيمان نفسه.

ولقد قال الدكتور «إريك ريكسون» وهو من أشد الأطباء حساسية وإدراكًا، قال: إن وظيفة الطبيب النفسى هى إعادة بناء حالة الثقة والإيمان فى نفس المريض، وهذا صحيح.. حالة ثقة، وأنا أوافقه لأنه بدون الإيمان تستحيل على الإنسان الحياة السعيدة الطبيعية.

وحالة الثقة، أو بعبارة أخرى حالة الإيمان — هى حالة نفسية أو اتجاه نفسى. إنها استعداد للتصرف. إنها استعداد للانقياد وللزعامة والقيادة مع الاطمئنان التام بأن ثقة المرء لم تكن فى غير موضعها.

وليس الإيمان لغزًا إلا إذا كانت الحياة بأجمعها لغزًا. ولقد قمت بالإشراف على الولادة فى بعض أيام عمرى، وكنت فى كل مرة أحصى فيها الأصابع العشرة الصغيرة وأفحص الأظافر العشرة الضئيلة، أستشعر أننى فى حضرة لغز عميق. وإننى أشعر بنفس الشىء عندما ألمح الحافة القرمزية حول النهايات البيضاء المتلألئة فى بتلات الوردة. كذلك الحال مع الإيمان. ونحن نعجب لماذا يجب علينا أن نكون مستعدين للمجازفة بحياتنا اعتمادًا على الثقة فى أنفسنا، وعلى الثقة فى غيرنا من البشر الذين يصيبون ويخطئون. وعلى ثقتنا فى كون ليس فى مقدورنا أن نفهم قوانينه إلا فى غموض. نعم إن الإيمان لغز، ولكنه حقيقة واقعة مثل أظافر الأصابع أو بتلات الوردة.

والإيمان اتجاه أو حالة نفسية واستعداد للتصرف على أساس من الثقة الملهمة حتى ولو كنا لا نرى إلا خطوة واحدة فى الطريق أمامنا. والإيمان هو أن يعطى المرء نقوده التى كسبها بعرق الجبين لصراف البنك فى مقابل بضع تأشيرات ليست لها أى قيمة ذاتية، فى أحد دفاتر البنك. إنه الدخول فى القطار دون معاودة التفكير فى احتمال ألا يصل إلى المكان الذى يقصده المرء. إنه السماح لطبيب الأسنان بأن يملأ ثغرة أصابها التسوس فى الأسنان. إنه الرضوخ للتطعيم. إنه شراء سيارة على نظام التقسيط. إنه غرس البذور فى الحديقة. إنه الأكل فى مطعم. إنه الذهاب فى النوم عندما يجن الليل مع الثقة بأنك ستستيقظ فى الصباح. فكل هذه التصرفات من أفعال الإيمان وبدونها تصبح الحياة مستحيلة. إننا نعيش ونحيا بالإيمان.

ولكننا نعيش أيضًا بالشك وهو لا يقل شبهًا بالحيوان عن الإيمان.

فعندما كنت طفلاً صغيرًا أتيح لى مرة أن أشاهد استعراضًا لفيلة فى السيرك، وكانت ستة منها تسير فى طابور واحد. وكان الفيل التالى يمسك بخرطومه ذنب الفيل الذى يسبقه، وهكذا حتى نهاية الطابور. وكان الفيل الوحيد فيها الذى لا يمسك بشىء هو الفيل الذى فى المقدمة. لقد كان على حريته.

ووصلوا إلى جسر صغير مصنوع من ألواح خشبية كبيرة خشنة وعندما وصل الفيل الذى يقود القطيع إلى الجسر وداس عليه ووضع قدمه الكبيرة اليمنى المستديرة على اللوح الخشبى، ثم رفعها ثم أنزلها، وكرر ذلك ولكن كان فى كل مرة يزيد من ثقله على اللوح الخشبى، وأخيرا وضع كل ثقله على قدمه اليمنى ثم كرر نفس العملية مع قدمه اليسرى. وكان يختبر كل لوح بحذر بادئًا بأحد أقدامه ثم بالأخرى وهو يتقدم ليمر على الجسر. إن تقدمه الحريص الحذر هو تمثيل صامت كامل للشك الصادق. ولم يكن ليفوقه فى ذلك أحسن الممثلات.

أما بقية الحيوانات فلم يكن لديها أى شك. فقط تتبع زعيمها وقائدها فى ثقة واطمئنان كامل. لقد علمت أنها تستطيع الاعتماد عليه. فأظهرت بذلك إيمانًا مبنيًا على التعقل.

فمتى نتصرف على أساس من الإيمان؟ ومتى نتصرف على أساس من الشك؟

إن الإيمان يمكن أن يكون بتعقل أو بغير تعقل، وكذلك الشك حتى الفيل يعلم ذلك، ولو لم يكن يعلم فقد كان يتصرف على أساس أنه يعلم، وقد نجح. فبدون التشكك المعقول الصحيح السليم لا مكان للإيمان المتعقل.

وأحب أن أشدّد على الحقيقة من أن هناك نوعين من الإيمان، أحدهما: مفتح العين متعقل. والآخر: أعمى غير متعقل. وبالمثل فهناك نوعان من الشك. أحدهما: مبنى على الحقيقة

والواقع، والآخر قسرى غير متعقل. فالشخص الذى إيمانه من النوع غير المتعقل يؤمن بالخرافات والأوهام. والموسوس الشكاك بدون تعقل لا يؤمن إلا بمخاوفه.

بالإضافة إلى ذلك، فإن إيمان الشخص إذا كان من النوع غير المتعقل أو الأعمى تتجه شكوكه إلى أن تكون بنفس القدر من عدم التعقل والعمى. فالاتجاهان أو الحالتان وهما الإيمان والشك يسيران معًا كوجهى قطعة العملة من النقود. فإذا كانت القطعة من العملة زائفة كان الوجهان بنفس المقدار زائفين. ولكن إذا كان أحدهما حقيقيًا واقعيًا كان الآخر كذلك.

ويرى الأطباء النفسيون هذا فى عيادتهم مرات ومرات.

فخذ مثلا حالة السيدة «دورلين. ل.». وإليك تسجيلا لحديث لها معى:

○ ليس هناك شىء أستطيع أن أستمسك به. إنما يبدو كأن كل شىء أحاول أن أحتويه فى قبضتى يصبح رقيقًا هشًا قابلا للتهشم فى يدىّ. ليس لى ثقة لا فى نفسى ولا فى إنسان آخر. إن الشك يطغى علىّ ويحتوينى. ولا أعرف إن كان ما أفعله صوابًا، وأى شىء أحاوله يكون عذابًا لى. إن مجرد الذهاب إلى البنك لصرف شيك فى عرفى محنة. إننى أخاف الوقوع فى أى خطأ. وفى محل البقالة لا أدرى أى شىء أشترى، وفى بعض الأحيان أخرج بدون أن أشترى شيئًا، وعندها أشعر أنى فى منتهى السخف والغفلة. والناس تضحك منى. لقد صدمت كثيرًا جدًا لدرجة أنى لا أعرف كيف ألتقط الأجزاء ثم أجعل منها كلاً متكاملاً. وأظل على ذلك الإحساس المريض بأننى قد أسىء إلىّ بالخيانة، ولا أدرى من أصدق ومن أثق فيه. وأظل أدعو الله أن يخرجنى من تعاستى بالموت.

وكان النوم بالنسبة لها مشكلة، فعرضت عليها أن أكتب لها دواء. فرفضت أن تأخذ أى دواء، إنها لا تعتقد فى الدواء. ومع ذلك كانت تؤمن بلوحة تحضير الأرواح كأداة للحصول على المعلومات السرية من أرواح الذين غادروا هذه الدنيا وظلوا ينتظرون اختراع هذا الدجل المسجل لكى يتصلوا بالأحياء. كما أنها كانت تعتقد أن هناك مخلوقات ضئيلة من عوالم أخرى تأتى لزيارة كوكب الأرض فى أطباق طائرة. وكانت تعتقد أن أى إنسان يستمسك بوجهة النظر العلمية الطبيعية ليس عنده أى شىء من الروحانية. وكانت تعتقد أن المرأة فى سن الثلاثين لا يمكن أن تكون جذابة. وفى كل مناحى حياتها كان الإيمان غير المتعقل يتمشى يدًا بيد مع الشك غير المتعقل.

والإنسان الذى لديه شكوك غير متعقلة عن الطب المنظّم هو فريسة سهلة للدجالين والمشعوذين وأصحاب البدع لكى يستغلوه. وفى السياسة أيضًا فإن أولئك الذين يحملون وساوس وشكوكا غير متعقلة عن سياسيين يحاولون أن يحدثوا تقدمًا فى النظام الاجتماعى

يقعون فى أيدى الزعماء الشعبيين الذين تجعلهم أطماعهم الأنانية على درجة من تبلد الإحساس بالقدر الذى لا يأبهون معه لجر مشايعيهم إلى الخطر. وفى علاقاتهم الشخصية ينزلق حتمًا أولئك الشكاكون غير المتعقلين نحو من يستغلونهم ثم ينبذونهم نبذ النواة حين يوافقهم ذلك.

قاعدة رقم ١

ليكن لك إيمان من النوع المتعقل. وليكن شكك من الشك غير المتعقل. واجعل العقل دليلك وقائدك إلى الإيمان، وستجد الأمن فى العقيدة التى تؤمن بها.

٢

ما هو الشك غير المتعقل؟

لقد كان الناس دائمًا يشكون كما كانوا دائمًا يؤمنون، ولكن منذ الأمس القريب فقط بدأ الشك كما بدأ الإيمان ينبنى على التعقل وحسن التنظيم.

إننا عندما نفكر فى العلم الطبيعى نفكر فى التقدم وفى الأمن وفيما يمكن إثباته بالإسناد. وعلى أية حال، فإن مكتشفات العلم الطبيعى بعيدة المدى والتى حدثت فى القرن التاسع عشر أشاعت الاضطراب فى الإيمان الأعمى لكثير من الناس.

ومع ذلك فإن الغاية من الإيمان هو الإسراع فى التقدم وبذلك نزيد فى إشاعة الأمن وفى التسليم بالإسناد.

وعندما كنت طالبًا فى الكلية كان هناك صراع مرير بين مؤيدى العلم الطبيعى ومؤيدى الإيمان. وكان جهلة الوعاظ وجهلة العلميين ينزلون على بعضهم، وكنا نحن الطلبة بالطبع نتشيع لفريق أو لآخر. وكانت المسألة إما أن تكون لنا وإما أن تكون علينا فليس هناك من حل وسط بل الحرب حتى الموت. ولم يكن هناك تعايش سلمى.

وانتهت المعركة بموت الشاه «فى الشطرنج» ولم يتمكن أى فريق من القضاء على الفريق الآخر. وفى الواقع أن المتخاصمين أصبحوا حلفاء، كما يحدث غالبًا بعد حرب إفناء لم تنجح. والآن وقد محا الزمن الكلمات القاسية والتهديدات المخيفة فإن الفريقين يسيران يدًا بيد. فكيف حدث ذلك، إن لذلك قصة ممتعة للغاية.

فكما ترى لو رجعنا إلى أوائل القرن التاسع عشر لوجدنا العلميين أصحاب العلم الطبيعى يتكلمون كثيرًا عن القوانين العلمية. وكان أكبر مطمح لكل علمى متطلع هو أن يكتشف قانونًا

جديدًا يمكن أن يخلّد اسمه إن لم يخلّد روحه. وعلى ذلك فقد كان هناك قانون نيوتن وقانون بويل وقانون جراهام. وأضفوا أسماءهم على قانون الأجسام الهابطة، وقانون تمدد الغازات وقانون النقود الغالية والرخيصة وقانون العوائد المتناقضة لا نقول شيئًا عن قانون العرض والطلب.. وكنا نأخذ هذه الأمور بكثير من الجدية.

واعتدنا فى تلك الأيام أن نعتقد أن القوانين العلمية هى حقائق أبدية سرمدية تكشف عن العمل الصامت لآلة لا تتسم بالشخصية والتى عندما تُفهم، فإنها تعين يد الإنسان على أن تحرك ضوابط الكون وروافعه. إنه وهم جميل، وكان يروق لخيال كثير من الناس. أو بمعنى آخر: إنه من أوهام العظمة المنظمة التى يصبح فيها الإنسان إلهًا.

ولقد كان العلميون أنفسهم هم الذين أفاقوا زملاءهم من حلمهم. فلما تقدمت بهم أساليب البحث والاستكشاف أحالوا أضواءهم الكاشفة على العلم الطبيعى نفسه. ولما فعلوه قصة ممتعة. وهى فى جوهرها تنتهى إلى أنهم اكتشفوا أن «القوانين» العلمية ما هى إلا معادلات وضعها الإنسان تأسيسًا على افتراض أو تخيل، وأنها لا تعبر عن شىء إلا أنها احتمالات إحصائية لا أكثر ولا أقل، ولكن مع أنها تأسست على التخيل فإنها صحيحة إلى حد ما.

وليس فى هذا أى حط من شأن العلم. بل على العكس إنها إنجازات باهرة تتيح للإنسان أى شىء يعينه على الشعور بالأمن الإحساس بالوضع والاتجاه والتعلق بالأمل فى وسط كون محير للغاية. لقد فعل العلم الطبيعى الكثير ليقيم فى نفوسنا حالة من الثقة.

والدين مثل العلم، كان عليه دائمًا أن يحارب معركة متزايدة الصعوبة ضد الخرافات والتعصب والكفر. والعلم الطبيعى يضع الآن فى يد الدين شحنة من الذخيرة. فإذا كان لإنسان اتجاه نفسى غير مطابق للعلم الطبيعى فإنه يمكنك أن تطمئن إلى أنه مخالف للدين. فلقد جعل العلم من الشك المتعقل أقوى أسلحة الإيمان المتعقل.

وعلى ذلك فللإجابة على سؤالى السابق: ما هو الشك المتعقل؟ أقول إن الشك المتعقل هو أى شك يتفق مع أحسن الآراء العلمية وأكثرها خضوعًا لمحك التجربة والاختبار.

قاعدة رقم ٢

إذا كان هناك اعتقاد لا يتفق مع العلم الطبيعى أى يتضارب معه فشك فيه.

٣

ما هو الإيمان المتعقل؟ وما الذى يمكن الاعتقاد به من كل قلوبنا؟ وما الذى يجعلنا نعيش بالإيمان فى ثقة وأمل واطمئنان؟

إن ركوبك سيارتك وقيادتها إلى أن توصلك لعملك فعل من أفعال الإيمان. إنك بهذا العمل تعبر عن إيمانك بنفسك وبمن حواليك من البشر، وفى استقرار الكون أو كما يعبر عنه البعض الإيمان بالله. وأى إنسان يبدأ أى شىء عن عمد وتدبير سواء أكان ذلك حياة جديدة على هذه الأرض أم رحلة فى سيارة، فإنما يتصرف بوازع من الإيمان بنفسه وبالبشر وبالله.

ولكنى قسمت الإيمان عمدًا إلى هذه العناصر الثلاثة لأن هذا يجعل الكلام عنه بطريقة تتسم بالذكاء أيسر، ويجعل الإيمان نفسه أيسر فهمًا. فالواقع أن الإيمان هو ثالوث لا يقبل التجزئة. إيمان بنفسك وإيمان بمن معك من البشر وإيمان بالله وكلها قد اجتمعت فى وحدة.

وكما سبق أن أشرت. إنك تدخل سيارتك ودون تفكير تتخذ طريقك وهذا يعنى أنك تضع الإيمان موضع التنفيذ. فلماذا يعتبر هذا عملاً من أعمال الإيمان؟ إنه لا يحتمل أن تدرك مقدمًا أنك ستصل إلى وجهتك التى قصدتها. كما أنه لا يمكنك أن تعرف مقدمًا ما الذى سيحدث لك بالضبط فى أثناء الطريق. وكل ما تعلمه أنه مهما حدث فسوف تستطيع التصرف معه.

وإن ثقتك فى نفسك ليست فى غير موضعها. فأى شركة تأمين يمكن أن تراهن بمليون دولار مقابل دولار واحد على أنك على حق وشركات التأمين لا تراهن على أساس خرافات، ولكن على أساس من المعلومات الإحصائية القوية. وهذه هى حالة من الحالات التى يقوم فيها التعقل بحماية الإيمان.

والإنسان ليس مخلوقًا بعيد النظر. فكل ما يمكن أن يراه كل منا أمامه هو الخطوة التالية. أما ما بعد ذلك فظلام دامس. ولكن من الأمور السليمة الطبيعية الصحيحة بالنسبة لنا أن نأخذ هذه الخطوة التالية، ذلك لأنه ما إن نأخذ تلك الخطوة حتى يكون فى الاستطاعة الاعتماد على مقدرتنا على وضوح الرؤية على بعدٍ كاف من الأمام يسمح لنا باتخاذ خطوة أخرى.

وهذا ما يجعل المتعة فى الحياة. رؤية خطوة واحدة. أما معرفة كل ما سيحدث بعد ذلك فلا يجعل للحياة طعمًا.

إن الإيمان بنفسك هو الحياة الحقيقة.

إذا فما الذى يمنع الناس من الإيمان بأنفسهم؟

إن فى ذهنى شابًا كانت عنده موهبة الكتابة. وكان يبغى أن يكون كاتبا كبيرًا. وكان عليه فى نفس الوقت أن يكسب عيشه. وفضلا عن ذلك فإنه لم يقنع بأن يكون كاتبا كبيرا بل كان

يبغى أن يتزوج وأن يعيش عيشة هادئة. ولكن الشكوك فى ذاته كانت تملأ نفسه لدرجة أنه لا يستطيع أن يبدأ. فليس عنده إيمان بنفسه. إن الشك فى نفسه يشله حتى عن أخذ الخطوة الأولى نحو هدفه، إنه يبدو كالمشلول.

ولقد نصحته بأن يحاول أن يحصل على عمل فى الكتابة. أى نوع من العمل؟ فقلت له أى نوع. فى جريدة أو فى مكتب إعلانات أو فى كتابة النسخ أو فى مجلة أو فى مكتب أحد الناشرين. فتلك يمكن أن تكون خطوته الأولى. ولا يستطيع أى إنسان أن يتنبأ بما سيكون بعد ذلك، ولكن هناك شيئًا واحدًا يمكن التأكد منه. إنها خطوة ستقود إلى خطوة أخرى فى الاتجاه العام الذى يريد السير فيه.

وهذا ما فعله «تشارلس ديكنس» و«سنكلير لويس» و«أرنست هيمنجواى» و «ويليام فولكر» (ولو أنك كنت تريد القيام برحلة سواء كانت نزهة إلى حديقة أم إلى القطب الشمالى فإن أول خطوة تتخذها هى أن تبحث حولك لترى ما صنعه من سبقك وتستفيد من خبرته). فإن و. ا. ودورد المؤلف لكثير من الكتب الجيدة، وإريك هودجنس الذى ألف كتاب «المستر بلاندنجس يبنى عش أحلامه» – كلاهما بدأ حياته الأدبية بكتابة الإعلانات. فإذا كان لشخص ما موهبة فى الكتابة فأحسن ما يعمل أن يلتحق بعمل يستغل فيه موهبته. فإذا بدأت ارتقاء السلم عند أولى درجاته فلا يحتمل أن يصيبك الدوار إذا وصلت إلى القمم. لأنك تعرف كيف ارتقيت.

ولكن صديقى الكاتب الطموح لم يستطع رؤية ذلك. وقد قال: إنه يريد أن يكون مثل الكاتب ديستويفسكى دفعة واحدة. معقول ولكنه مستحيل: إن ديستويفسكى معجزة. والعلم الطبيعى يقول لنا: إن الله لا يكرر نفسه أبدًا. فالذى لم يدركه هذا الشاب هو أنه على طريقته الخاصة كان أيضًا معجزة. ولكنه لم يكن يعتقد بالمعجزات. فلم يكن له إيمان بنفسه.

إن الإيمان بالنفس يجعلها أكثر إقبالاً على احتمال الفشل الناتج عن مدة التلمذة الطويلة. إنك تستطيع احتمال أى شىء تقريبًا إذا علمت أن له نهاية. ولقد نصحت ذلك الشاب أن يقضى ثلاث سنوات فى تعلم صناعته واكتشاف ما يريد أن يقوله بالضبط. فإذا قبل نصيحتى فليكن واثقًا أن النتائج قادمة لا ريب فيها. (فعندما يكون لدى الإنسان موهبة حقيقية وطموح متأجج للوصول بها إلى الكمال فكل ما هو فى حاجة إليه هو المثابرة والإيمان بالنفس).

ولقد كنت شابًّا أعيش فى ديترويت عندما كان هنرى فورد يحاول أن يبدأ صناعة السيارات. وكان فورد فى ذلك الوقت لا يحلم حتى ببناء إمبراطورية صناعية كبيرة. إنه لم يتخيل نفسه يشترى مناجم الحديد ويبنى مصانع الحديد والسكك الحديد والخطوط الملاحية وإنتاج مليون سيارة فى العام. وكل ما كان يبغيه هو أن يجعل عربة تسير بالبنزين. وكان فى

تصوره أن مجرد صنع بضع سيارات كان خيرًا له من العمل كميكانيكى فى شركة إديسون بديترويت. وكانت أولى خطواته أن يصنع سيارة تتحرك. وكانت خطوته الثانية أن يبيعها ثم ينشئ غيرها.

(فالنظام. النظام. إن كل شيء له قيمة يسير فى نظام وترتيب. فالحبة أولا ثم النبات، وأخيرًا الثمرة).

ومنذ حوالى ستين سنة مضت حاول الأخوان رايت أن يبنيا طائرة يمكنها أن تبقى فى الهواء لمدة دقيقتين. ولم يدر بخاطرهما أبدًا أن الوقت سيأتى حيث يستطيع المرء أن يقطع عرض القارة الأمريكية من الغرب إلى الشرق ثم إلى الغرب ثانية فى لوس أنجلوس فى أقل من اثنتى عشرة ساعة. إنهم لم يتعبوا أنفسهم فى التفكير فى المستقبل، لقد كان اهتمامهم منصبًّا فقط على الخطوة الأولى. لقد كان عندهم إيمان بأنفسهم وأظهروا هذا الإيمان بفعل شيء يتصل به. وكما يقول القديس جيمس: (فكما أن الجسم بدون روح يكون ميتًا كذلك الإيمان بدون عمل أيضًا).

إن الإيمان قوة محركة متحركة. إنها تعمل. والإيمان يحرك الجبال خصوصًا إذا كان مدعمًا ببولدوزر ومحمولا على جرار قوى. وبدون الإيمان لا يستطيع الإنسان أن يفعل شيئًا. وبه يصبح فى الاستطاعة فعل أعظم المنجزات. وكما قال إرازمس للسير توماس مور (أعتقد أنه لك وسيكون لك) فاعتقد أن عندك إيمانًا وسيكون لك ما تحيا به. فاعتقد فى الإيمان. إنها الخطوة الأولى للإيمان بنفسك.

قاعدة رقم ٣

(ضع لنفسك هدفًا ثم اتخذ الخطوة الأولى نحو هذا الهدف ولن ترى الخطوة الثانية إلا بعد أن تتخذ الخطوة الأولى).

٤

وماذا عن الإيمان بمن حولك من البشر؟ وكيف يكوِّن للإنسان الإيمان المتعقل والشك السليم؟ وكيف تستطيع معرفة من تثق به؟

لقد وقع هارى آش ضحية عملية نصب فقد فيها خمسمائة دولار أخذها صديقه الذى وثق به. واقتاد هارى سيارته إلى حيث يسكن الصديق ليطالب بالمبلغ فوجد أنه غادره إلى مكان مجهول. ولما أحس بالخديعة التى انفطر لها قلبه عاد إلى سيارته الجاثمة وهو

يقول: «لن أثق أبدًا فى أحد مرة ثانية». وركب سيارته وسار بها ضاربا بذلك المثل الكامل على إيمان الأطفال.

ذلك لأن هارى لم يكن يدرى شيئًا فى علم الفلزات، وكل ما كان عنده هو إيمان بخبراء الفلزات الذين يكتبون المواصفات للمحور الخلفى لسيارته، ولم يكن يعرف الكثير عن هندسة السيارات ولكن كان عنده إيمان فى أولئك المهندسين الذين صمموا المحور الخلفى ليتحمل الضغوط التى يتسبب فيها هارى كلما أسرع بالسيارة عندما يرى شارة المرور الخضراء وهى تضاء. كما أنه كان عنده إيمان كامل بعجلة القيادة فى سيارته وفراملها وإطاراتها من ذلك النوع من الإيمان الذى يكون عند الطفل وهو يرضع من ثدى أمه ويرتاح على صدرها. ولقد قال: إنه لن يثق بأحد أبدًا مرة ثانية ولكن سيارته المزمجرة كانت تنكر كلماته بقوة لا يمكن معها سماع الكلمات.

ثم سار فى الشارع. وكان يفصل سيارته عن السيارات القادمة بسرعة فى الاتجاه المضاد خطان أبيضان على الطريق. ومع ذلك فقد كان هذان الخطان الأبيضان فى فاعلية حائط من الحجارة فى حمايته من تصادم مباشر يودى بحياته. إن هارى لم يكن خائفا. لقد كان عنده إيمان أن غيره من السائقين سيحترمون هذين الخطين الأبيضين. كما أنه كان فى نفس الوقت مفتح العينين.

ويقوم عالم التجارة والمال على الإيمان. فحينما سئل المالى الكبير الراحل بييربونت مورجان على أى أساس يجعل سلفياته أجاب «الخلق». فكم من ائتمان كبير تم، وصكوك مالية أخذت وأعطيت وذلك كله على أساس الإيمان وحده! إننا عندما نطلب صرف صك نعنى فى الواقع الثقة والإيمان بنا. وليست النقود فحسب بل حياتنا نفسها تتوقف على الإيمان الطيب بأناس لم نرهم أبدًا ولا يؤمل أن نقابلهم أبدًا فى يوم من الأيام. وفى كل مرة تأخذ فيها جرعة من الماء أو رشفة من اللبن فأنت آمن بإيمانك أنها خالية من جراثيم التيفود القاتلة. ودون تفكير فأنت تؤمن بالمفتشين والمراقبين الصحيين.. وأنت باستمرار تجازف بحياتك نفسها إيمانا منك بغيرك من البشر.

ومع ذلك فمازلت حيًا. وكذلك هارى آش الذى قال: إنه لن يثق بإنسان أبدًا بعد ذلك.

وكل الكتب التى وضعت عن علم النفس الشاذ تناقش موضوع الاضطرابات فى وظيفة الإيمان وخصوصا إذا كانت من النوع الشاذ الذى يسبب الخلل العقلى الحاد. فمثلا قال لى مريض: إن الشيوعيين يمنعونه من الوصول إلى معادلات رياضية هامة باستئجارهم لموسيقى يسكن فوقه ولا ينقطع عن الغناء كلما حاول هذا المريض أن يفكر. وقال المريض إن الموسيقى أحدث عدة

ثقوب فى السقف لكى يتجسس عليه ويسرق أى معادلة رياضية يصل إليها بحساباته الرياضية الدقيقة السرية.

إن فى استطاعته أن يرى الشيوعيين حيث فشل المخبرون المحترفون فى الوصول إليهم. وهو يقول: إنه ضحية «شبكة حمراء» كانت تقوم بتسميم غذائه فى المطاعم واستئجار عربات التاكسى لتعطيل المرور أثناء ساعات الازدحام. ولهذا السبب فهو لا يأكل أبدًا فى المطاعم ولا يركب الأتوبيس وحتى وهو يمشى على رجليه كان حريصًا على فتح عينيه حتى يرى «الشيوعيين» الذين يستطيع هو أن يميزهم بالتعبير الموجود على وجوههم.

ومع ذلك ومع هذا الشك الذى قد يصل إلى حد الشعور بجنون الاضطهاد، كان سريع التصديق إلى درجة مفرطة. إنه على استعداد للتصديق بأى شىء طالما كان متمشيًا مع أوهامه. ومرض هذا الرجل يوضح ما قلته وهو أن الشك غير المتعقل ينتج الإيمان غير المتعقل.

ولم يفهم هذه الظاهرة أحد خيرًا من هتلر.

فلكى يحتال على الناس فى ألمانيا ويجعلهم يؤمنون به، عمد إلى تحطيم إيمانهم فى بعض. وهاجم الجامعات وسلط الجهلاء على المتعلمين. وخلق فى أذهان المُلاَّك أن العمال كانوا على استعداد لأن يأخذوا منهم كل شىء يمتلكونه. وكانت نتيجة ذلك أن تبعه الملاك ذوو القلوب الضعيفة كما در عليه ذلك المعونة المالية من الناس «المحترمين».

وبعد أن حرك الطبقات على بعضها، راح يحرك الأديان ضد بعضها. وما إن فقدت هذه المجموعات الإيمان ببعضها حتى زاد إيمانها أكثر فأكثر بذلك الإنسان عالى الصوت الصائد فى الماء العكر. وزاد ذلك فى قوته فاستغلها فى زرع عدم الثقة بين الأصدقاء وحتى بين أعضاء الأسرة الواحدة. فلم يكن أحد يدرى من الذى سيشى به إلى الشرطة السرية. وبذلك انقطع الجدل السياسى ومات الإعراب عن الفكر. وحقق بذلك هتلر هدفه.. وكانت له الكلمة العليا كلمة الحياة أو الموت بالنسبة للألمان. فكانوا عبيده. وبما أن الشك كان متفشيًا فقد خاف الناس من التضامن والانضواء تحت أية حركة انقلاب ضده.

(إن الشخص الذى يحطم إيمان الإنسان بنفسه أو برفاقه أو بالله إنما يقترف جرمًا أبشع من القتل. إن القاتل يقتل الجسد ولكن الذى يسمم الإيمان بين مواطنيه يقتل الروح).

ولكل مفكر طريقته فى التعبير عن القاعدة المثلى. وطريقتى هى كالآتى:

اعمل دائمًا بطريقة تزيد حصيلة الإيمان فى العالم. ولا تسمح أبدًا بأن يقال: عنك إنك فعلت شيئًا من شأنه أن يحطم إيمان إنسان. وبدلا من ذلك حاول أن تزيد فيه وتُربيه. زد فى

إيمان أخيك فى نفسه وفى رفاقه من البشر وفى الله ذلك لأن الإيمان هو القوة التى ينشأ عنها كل خير. اعمل دائمًا بشكل يعيد ويبعث الحياة والقوة فى حالة الثقة والإيمان.

ولكن متى يكون الشك متعقلا؟ وكيف نستطيع معرفة من نثق فيهم؟ ومتى نتوقف عن إيماننا بالغير؟

لعلك تذكر هارى آش الذى نصب عليه «صديق» فأخذ منه خمسمائة دولار. لقد كانت نقطة الضعف فى هارى أو كما نقول مطلبه أو حاجته النفسية هى أنه يبدو عظيمًا. فتظاهر بأن بضع مئات من الدولارات لا تعنى شيئًا بالنسبة إليه.. فتمشى معه صديقه فى هذا لفترة من الوقت، ثم طلب عرضًا سلفة بمناسبة نهاية الأسبوع. فوقع هارى فى كمين ادعاءاته. وفى بشاشة وحبور كتب صكًا بخمسمائة دولار. وقذف به على المائدة. إنه لم يكن راضيًا عما يفعل ولكن ماذا كان يستطيع أن يفعل؟ فلقد كان مضطرًا للاستمرار فى تمثيل كذبته. وأنت تعلم الباقى.

والطمع، وهو الرغبة فى الحصول على شيء مقابل لا شيء نقطة ضعف أخرى تفسد سلامة التقدير وصحة الحكم على الأشياء. ولقد أخبرنى أحد سماسرة العقارات النصابين أنه باع أرضًا لا قيمة لها وفى صحراء وذلك بالالتجاء إلى رغبة اختلاس مال الغير المزروعة فى قلب الشارى. فأبلغ السمسار الفريسة بأن أرملة قد ورثت أرضًا ذات قيمة ولكنها لا تدرى قيمتها ويالسَعْد من يلتقطها؟ فكتب الشارى صكًا بالمبلغ. ولكن عندما أراد بيعها ثانية اكتشف الخديعة.

وكان هناك رجل أعمال ناجح وله مال فى البنوك ولكنه كان يشعر بالوحدة ولم يكن لديه صبر. وكان يبغى الزواج سريعًا. وكان فى مقدوره أن يتصل برفاقه من أصحاب الأعمال وأن يوسع من دائرة صداقاته وينتظر حتى يتأكد من حصوله على ما يرغب فيه بالضبط، ولكن هذه الطريقة كانت بطيئة فى نظره. ولذلك أجاب عن إعلان زواج فى «القلوب الوحيدة» فى إحدى الجرائد اليومية. وفى وقت أسرع من المعقول تم الزواج. واليوم يتبارز محاميه ومحاميها فى محكمة الطلاق على من يحصل على ماذا. ومازال صاحبنا وحيدًا.

(إن قليلا من البصيرة بحاجاتك ومطالبك الخاصة كفيل بإنقاذك من الوثوق بأناس على استعداد لاستغلال نقط ضعفك. (إن مطالبك الخاصة تخلق نقط ضعف عمياء تمنعك من رؤية الناس بطريقة موضوعية). ويأخذ تفكير التمنى والتعلل بالأمانى محل التفكير المتعقل، ولكن قليلا من البصيرة بطبيعتك الخاصة تتيح لك أن تعمل حسابًا لنقط ضعفك فتنظر ما حولها).

القاعدة رقم ٤

هناك أربع قواعد يمكنها أن تنقذك من الخديعة والأسى والأسف والندم.

القاعدة ١ — لا تثق أبدًا في شخص يلجأ إلى نقط ضعفك.

القاعدة ٢ — لا تنتظر من أحد أن يصنع لك ما يجب عليك أن تقوم به بنفسك. إن أخصر الطرق هو أطولها التفافًا.

القاعدة ٣ — استغل إدراكك السليم. فإذا تقدم إليك أحد عارضًا منجمًا لليورانيوم فثق أنه يريد أن يهوى بك في قاعه. فمناجم اليورانيوم الغنية لا تحتاج لدلال بل إن وجود واحد منها كفيل باجتذاب الخبراء في لحظة إليه ومعهم النقود لشرائه. وكذلك أدعياء الطب الذين يزعمون بأنهم يقدمون أغلى الخدمات بأرخص الأسعار فلا تصدقهم.

القاعدة ٤ — وهذه تتصل بشيء حدثتك عنه قبلا. ففي كل موقف تكون فيه مدركًا لما يدور خارجك، كذلك فأنت تدرك ما يدور بباطنك فأنت إذا على وعي بما يدور في الداخل والخارج. وبالاستمرار على التدريب على الحياة والعيش في التو واللحظة يمكنك أن تزيد من حساسيتك للعالم الخارجي وللعالم الباطني في داخل ذاتك.

ولقد سمعت القول المأثور: «إن أول الانطباعات أحسنها» فاجعل نفسك حساسًا للانطباعات الأولى قبل أن تعميك الألفة عنها. فأنت تعلم أنه عندما أعجبتك صورة من الصور علقتها على جدار غرفتك وظللت تنظر إليها كل يوم حتى أتى اليوم الذي لم تلحظ فيه وجودها. وهذا ما يحدث لك بالنسبة لانطباعاتك عن الناس. فوجه اهتمامًا خاصًا لما تشعر به من الداخل عندما تضع عينك على شخص لأول مرة. فإن هذه هي اللحظة التي تراه فيه بأكبر قدر من الوضوح.

ومن المستحيل وضع وتبويب العلامات ذات المغزى لمعرفة استجابات الناس. فأنا أعرف رجلا يقول: إنه لا يثق أبدًا في أي إنسان لا ينظر إلى عينيه بطريقة مباشرة (العين في العين). ولا حاجة بي للقول بأنه قد خدع مرات كثيرة من أناس كذابين مكشوفي الوجوه فهموا حيلة النظر المباشر للعين.

كلا، يجب عليك أن تبني أحكامك على أساس إحساسك بمشاعرك وحساسية هذا الإحساس. وإنك بتوجيه انتباهك لمشاعرك والثقة بها يمكنك أن تزيد سلامة تقديرك وحكمك حدة إلى درجة يصبح معها في مقدورك تَبيُّن الخبيث والطيب من نظرة واحدة.

ولحسن الحظ أن معظم الناس أهل للثقة. فلقد أصبح الخير إلى حد كبير عادة اجتماعية لدرجة أنه يمكننا أن نأخذ - كقضية مسلمة - موضوع حسن الثقة في العاملين معنا، وجيراننا وزبائننا ومتعهدى البضائع والخدمات. إنه أمر عجيب مدهش. إنك عندما تفكر في الموضوع تجد كيف أنه يمكن وضع الثقة في معشر البشر.

إن الإيمان العريض المبنى على التعقل بالنسبة للغير، إذا أضيف إليه القليل من الشك المتعقل يساعد الشخص على الرضا بحسن ثقته بالناس وتوقع حسن نواياهم

(٥)

والآن حان الوقت للكلام عن الإيمان المتعقل بالله. ولكن دعنى أولا أذكرك أن الإيمان المتعقل بالذات والإيمان المتعقل بالناس لا ينفصلان عن الإيمان المتعقل بالله.

ويقول سيجمند فرويد فى كتابه «مستقبل صورة خادعة» إن الدين نوع من العُصاب (اختلال فى وظائف الأعصاب) تتسلط فيه فكرة على العقل. ويقول الشيوعيون: إن الدين مخدر الشعوب فهذان البيانان لا يتناقضان. ولكن هل هما صحيحان؟!

والصحيح هو أن الدين يخلص الإنسان من القلق. أما إدمان المخدرات فهو تسلط فكرة على العقل تدفع لمحاولة جعل عادة القلق محتملة. ولكن كما قلت فى كل فصول هذا الكتاب، إن التفكير الطبيعى والشعور الطبيعى تخلص أيضًا من القلق. فالسؤال الحقيقى هو هل من الطبيعى أن يكون لنا دين؟

لقد حان الوقت لأن يواجه المتمسكون بالتحليل النفسى هذا الموضوع فى شجاعة وصراحة.

ولقد سارت العيادة النفسية المسماة مييننجر فى توبيكا بولاية كانساس خطوة للأمام بجمعها بين رجال الدين والطب النفسى لزيادة التفاهم المتبادل بين الطائفتين. وإنى لأتطلع إلى كثير من الخير من مؤتمراتهم.

وعلم طب النفس كما يعرفه هارى ستاك سليفان هو دراسة العلاقات المتبادلة بين الأشخاص. وبالتأكيد أن الدين يكون الجزء الأكبر فى هذه العلاقات. وأنا بدورى أسأل المتمسكين من أصحاب التحليل النفسى: هل هذه العلاقات والروابط علاقات عُصابية (أى مبنية على خلل فى عمل الأعصاب)؟ وهل هى عقبة فى سبيل العلاقات الطبيعية؟ إن على الأطباء ولصالح صحة المجموع، مسئولية تعريف الناس بموقفهم إزاء هذه الأسئلة.

وأنا من جانبى على استعداد لأن أعلن للعالم موقفى فى هذا الشأن.

فأنا أؤمن بأن هناك قوة قادرة لا أستطيع أن أفهمها إلا بطريقة غامضة. وأنا أؤمن بأن هذه القوة لا تعمل فقط على هذا الكوكب الأرضى وحده، بل إنها تعمل فى الكون بأسره. وأنا أؤمن بأن هذه القوة تعتبر من وجهة النظر الإنسانية، قوة خيِّرة رحيمة. والأكثر من ذلك أننى أستعين بهذه القوة وأتكل عليها. كما أنى أعتمد أيضًا على نفسى وعلى الرجال والنساء من ذوى النوايا الطيبة فى العالم بأكمله لإقامة التعاون بين الجميع للعمل من أجل السلام والتوافق

والانسجام والإخاء بين بنى البشر. وأخيرًا فإنى أتوكل وأعتمد على هذه القوة الخيِّرة الرحيمة التى أعرفها فى غموض، لكى تعطى العقل معنى، والبشر قوة ومعونة، هذه القوة أسميها الله.

والأكثر من ذلك، أنا أؤمن بأن كل إنسان فى حاجة إلى الإيمان بالله ليكون له سندًا وعضدًا فى تلك الساعات الحالكة عندما يتلجلج إيمانه فى نفسه وفيمن حوله من البشر. ففى الأوقات التى تحدق بنا المشاكل الشخصية والكوارث، وعندما يبدو المستقبل أمام البشرية فى أحلك صوره – عندها يقوم الإيمان بالله وبرحمته وكرمه بشد أزرنا وجمع شملنا.

هذا من الواجب علىّ أن أقوله، هو وجهة نظر الطب النفسى ورأيه فى الدين.

وأستطيع من خبرتى وتجاربى الخاصة أن أشهد أن هذا الدين ينجح كقوة فعالة. إن شهادة اختبار من هذا القبيل لا تثبت شيئًا. إن مدمن المخدرات يستطيع أن يشهد بأن المورفين نجح فى إبراز شجاعته وفى تبديد قلقه. أما المحك والمعيار بالنسبة للدين فهو التعقل المنطقى. فهل هذا الإيمان فى قوة قادرة خيرة رحيمة يتمشى مع أحسن ما فى الآراء العلمية؟ وهل أنا أهذى لأعيد الثقة إلى نفسى، أو أن لدى أساسا معقولاً للإيمان بقوة هى فوق قوتى؟

وأعتقد أن لإيمانى أساسًا منطقيًا معقولاً وسأنبئك بالسبب. فمن ضمن الأشياء التى أهتم بها وأشغف علم الفلك الحديث والطبيعة النووية. والشيء الذى يترك فى نفسى أعمق الأثر هو وجود التعقيد الجبار إلى جوار البساطة العجيبة فى الكون المادى كما نستطيع أن نفهمه. إنه التعقيد والبساطة التى نجدها فى كل الأعمال الفنية العظيمة. ومهما قلب الإنسان بصره سواء فى مجرة الطريق اللبنى أم فى الذرة فسيجد الترتيب والتنسيق والنظام – التنظيم القائم على أقل الجهد والنفقة – وهذا ما تجده بالضبط فى أحسن أعمال الهندسة المعمارية أو التصوير والرسم أو النحت أو الموسيقى أو الأدب أو الغزل البدوى. وأعظم الكتب وأحسنها هى البسيطة، ولكن عندما تبدأ فى تحليل هذه البساطة تجد أنها تمت نتيجة اختيار وتمييز بين عدد لا نهاية له من الاحتمالات.

– إنها فى درجة من الحسن والجودة والكمال لدرجة تستبعد معها المصادفة.

وفى مقدورك أن ترى هذا الترتيب والتنظيم والنظام فى العلاقات الاجتماعية. ولقد حاولت أن أوصل لطلبتى نوعًا من الفهم والإدراك لعلم النفس الاجتماعى، فعندما كنت أعطى مقررا أوليًا فى التنظيم الاجتماعى شعرت بأننى أحسن عملا لو أنى جعلتهم يشعرون ويحسون بحقيقة التنظيم الاجتماعى وواقعيته، وأن يروه على حقيقته ويقدرود قدره فيعلموا أنه نتيجة للاتصال الإنسانى والتواصل البشرى. وبالطبع فإن نفرا منهم لن يستطيعوا أبدا أن يهضمود، كما أن غيرهم لن يستطيع أبدًا إدراك العلاقات المكانية فى الهندسة الوصفية. ولكن أغلبهم تبلورت لديه الفكرة فى أقل من أربعين درسا.

فالنظام الاجتماعى هو نتيجة لكفاح البشر على مر القرون للتعبير عن أنفسهم ولتحقيق أهدافهم وإمكانياتهم بالتأثير فى غيرهم من البشر والتأثر بهم.

وفى كل الأحوال تقريبًا يحدث التنظيم الاجتماعى دون إدراك واع له. فالناخب الذى يصوت ويجعل أصدقاءه يصوتون فى صالح القرض لإقامة المدارس وتحسين التعليم نادرًا ما يدرك الدور الذى يلعبه فى الإبقاء على قيم الحضارة التى ينتمى إليها. فكل ما يعنيه الأمر هو مَدْرسة متفرغة ومُدرس من ذوى المؤهلات لتعليم أبنائه. وقد يكون لدى الفرد كثير من الإدراك والوعى بما يحاول أن يقوم به، ولكن القليل من الناس يبصرون الارتباط بين جهودهم وبين النموذج الكامل للنظام الاجتماعى.

ولكن النموذج الناتج هو نموذج حركى متحرك وإنه لم يأت عفو المصادفة فلن يحدث شىء حتى يقوم بإحداثه أحد، سواء أكان هذا الشىء هو التأمين على قروض المدارس أم إصلاح مفتاح إضاءة المصباح الكهربائى.

فحياتنا الاجتماعية تمثل تنظيما يشبه فى تعقيده نظام القوى داخل الذرة. ولكنه تنظيم ناجح فعال لدرجة أنه لا يمكن أن يُعزى إلى المصادفة.

ولما تركت تدريس علم النفس الاجتماعى لكى أدرس العلوم البيولوجية (وفيها الطب) وجدت النظام والتنظيم والغائية الهادفة فى حياة النبات والحيوان. ولو أتيح لأحد أن ينظر بالمجهر ليرى التركيب البنائى لعنق عظمة الفخذ لذهل من كمال البنية والحذق فى بنائها. وفى عالم علم الأحياء يوجد الدليل على نفس الغائية والتنظيم الذى يشيع فى عالم الجماد والعالم الاجتماعى. فعندما كان أسلاف الحصان التى تشبه الذئب تجرى على ثلاث من أصابع القدم بدل خمس لم تكن لتدرك أو تتصور أنه سيأتى يوم من الأيام يجرى فيه أحد أحفادها على إصبع واحدة ليكسب سباق الدربى فى كنتوكى. ولكنه حدث. وقصة التطور هى قصة التنظيم المتحرك الغائى الهادف لكى تصل الحياة إلى أشكال أعقد ومع ذلك فهى أكثر بساطة.

وفى الإنسان تصل عملية التطور إلى قمتها، أى إلى أعلى نقطة فى التعقيد والبساطة معًا. فمثلا يحتوى مخ الإنسان على البلايين من الخلايا الحية، وكل واحدة منها عبارة عن بطارية (حاشدة) كهربائية صغيرة جدًا؟ هذه البلايين من البطاريات الكهربائية، والتى تصل إلى درجة من الضآلة وصغر الحجم حتى لا ترى إلا تحت المجهر، نجد أنها منظمة فى وحدة واحدة عاملة هى المخ البشرى. إن ما به من تعقيدات تذهل الخيال. ومع ذلك فالإدراك أو الوعى عملية بسيطة ومباشرة ونحن نأخذها كأمر مسلم به.

وقد يحاول البعض ويمارى أن هذا التنظيم نتيجة للمصادفة فى وجود الذرات والجزيئات فى حيز واحد من المكان. فإذا كان الأمر كذلك فإنها لمصادفة غريبة. ولكننى ألاحظ أن أولئك الذين يصرون على أن هذا التنظيم والنظام المعجز للكون هو وليد المصادفة يحسون بكثير من الزهو بعملهم عندما ينظمون فريقًا للجوالة أو هيئة أمم متحدة. إننى أصفق لهم عندما ينظرون إلى عملهم بنظرة رضا ويعتبرونه عملا طيبًا ولكنى لا أستطيع أن أوفق بين تصرفهم هذا وبين رأيهم فى أن هذا الكون وهذا التنظيم لمواد على درجة لا تتصور من التعقيد هو وليد المصادفة. فهذا الاتجاه أو الحالة النفسية عندهم لا أرى إلا أن أسميها حماقة ليس فيها وفاء بالجميل.

وقد حدث مرة أن كتب الفيلسوف العظيم أبيلارد إلى البابا جريجورى السابع يقول له: إنه لا يستطيع أن يؤمن بإله ليس فى مقدوره فهمه أو إدراكه. وأنا أتعجب هل كان أبيلارد يمكن أن يرفض الإيمان بالتلفزة (التليفزيون) لنفس الأسباب.. ولقد كان البابا جريجورى فطنًا جدًا حين كتب إليه فى الرد أنه لا ضرورة لأبيلارد لكى يفهم. وأن كل ما عليه هو أن يؤمن.

إننى لا أتظاهر بالادعاء بأننى أفهم الله وأدرك طبيعته. ولقد قرأت عشرات الكتب فى علم اللاهوت، ولكنى أشعر بقدر معين من الشك فيما يختص بمؤهلات مؤلفيها مهما كان علمهم وحسن نياتهم.

فكثير من هؤلاء اللاهوتيين يصفون الله بعبارات مما اصطلح عليه البشر من قيم. فهو جماع الحكمة والقوة والرحمة وجماع كذا وجماع كذا. إن أفكارهم عن الله أفكار فيها تشبيه الله بالبشر. فهم يتصورون الله كنوع من البشر. وتصوراتهم وافتراضاتهم لا تقنعنى وإن كانت مشوقة ومثيرة للاهتمام وملهمة فى بعض الأحيان. وما زلت لا أفهم طبيعة الله. وكما قال البابا جريجورى إنه لا ضرورة لى لكى أفهم. وفى الواقع أن ذلك من المحال.

وأنا لا ألوم أو أنتقد اللاهوتيين فى آرائهم المشبهة لله بالبشر. فبأية وسيلة أخرى يمكن أن تصف قوة لها هذه القدرة والفاعلية إلا فى عبارات عما تعرفه أنت وبأكبر درجة من الوثوق وهو- أنت ذاتك؟ وكذلك يفعل العلميون أيضًا. فعندما قال العلامة الراحل ألبرت أينشتين إن الله لا يلعب النرد مع الإنسان كان يصف الله فى تعابير تشبه البشر. فأى مخلوق غير الإنسان يمكن أن يتبارى مع النرد فى لعبة المصادفة أو الحظ؟

ومعركتى مع رجال اللاهوت لا ترجع إلى أنهم يقولون لى عن الله أكثر مما يجب. بل لأنهم يقولون أقل بكثير مما يجب. فأنا أبغى معرفة كل شىء عنه سبحانه وتعالى: فأنا مثل الطفل الشره الذى يحصل فى عيد الميلاد على لعبات فيبدى أنه صُدم لأنه لم يحصل على كل ما فى حانوت لعب الأطفال من لعب.

ويجب أن أعترف أننى عندما أشعر بوجود الله فأنا أيضًا أفكر بعبارات ومصطلحات تشبه البشر. فعندما أنجح فى عمل شىء أعتقد أنه طيب إلى حد ما، أحب أن أفكر كما لو أن الله يخاطبنى بقوله: «حسنًا فعلت أيها الغلام»، وعندما أفشل أستشعر بعض التشجيع عندما أسمع صوت الرعاية الربانية يقول: «محاولة جيدة، ولكن الإدارة سيئة، وفضلا عن ذلك فأنت لم تحصل على السر. حظ سعيد فى المرة القادمة». وعندما أكون فى وسط موقف صعب وأحتار فيما أقوله لمريض، أستشعر القوة عندما أحس بيد العناية الربانية فوق كتفى وأسمع الصوت يقول: «ابق معه، أيها العبد، إنك على صواب فيما تفعل. فاستمر فى المحاولة».

وطبعًا أنا فى الواقع لا أسمع صوت الله أو أحس بدفء قرب يده منى تشد أزرى ولكنى أتصور الله كشخص. وكيف لى أن أتصوره سبحانه وتعالى على غير ذلك؟

إن الشعور بوجود الله ليس من قبيل الهلوسة أكثر مما يحدث حين يقول طبيب نفسى خبير عندما يسأل: «ماذا كان يمكن أن يقول هارى ستاك سوليفان الآن». أو «ماذا كان فرويد يفعل لو كان فى هذا الموقف». فبالنسبة للأطباء النفسيين فإن هذين الرجلين - ولو أنهما تركا هذا العالم منذ فترة طويلة إلا أنهما - مازالا يعيشان فى الخيال. وإنه للمكان الوحيد الذى يعيش فيه أى إنسان يؤثر علينا فى الواقع.

إنه لا يليق بأتباع فرويد المتمسكين بتعاليمه أن يسخروا من التصور المشبه الله بالبشر، فإنهم هم أيضا يتصورون العقل البشرى كسبعة من الأقزام يسكنون الجمجمة وهم فى معركة مع بعضهم، وأتباع فرويد يتكلمون عن العقل الباطن أو اللاوعى على أنه مكون من ثلاث، والوعى مكون من مثلها وكلها فى صراع أحدها يريد هذا والآخر يطلب ذاك على حين يقوم الرقيب وهو من الشخصيات الخرافية يمنع الاتصال بينها. فإذا لم يكن هذا تصور مشبه بالبشر فماذا يكون؟

وقد يقول أنصار التحليل النفسى: «ولكن أحدًا فى كامل صوابه لا يمكن أن يأخذ هذه الألفاظ بظاهرها. إنها مجرد تشبيهات وكنايات وصفية لشرح وإيضاح العمليات العقلية الديناميكية (الحركية)» - تمامًا. فكذلك عندما يحاول رجل اللاهوت أن يصف قوة قادرة لا يدرك كنهها وهى التى نظمت الكون بطريقة غائية هادفة - من وجهة نظر البشر - بطريقة رحيمة خيّرة فهو يلجأ أيضًا إلى الاصطلاحات التشبيهية البشرية، لأنه كأى إنسان بشر، لا يستطيع أن يفعل خيرا من ذلك.

ويؤمن الأستاذ و. ت. ستاس أستاذ الفلسفة بجامعة برنستن ومؤلف كتاب «الدين والعقل الحديث» بأنه فى مقدورنا أن نصل إلى معرفة مباشرة بالله عن طريق العمليات العقلية التى

يحدثها التصوف، وهذا يستحق النظر، لأنه إن كان حقًا فإن له أهمية قصوى فيما يتصل بصحة العقل وسلامته عند الجميع.

وكان فرويد يسمى هذا النوع من الخبرة والممارسة باسم «الشعور المحيطى» (نسبة إلى المحيطات البحرية) وكان من الخصال الملازمة له والبارزة فيه أنه يتجاهل العدد الهائل مما كتب فى علم النفس وهو سهل ميسر لا للباحثين فقط بل لأى دارس يريد أن يكون على علم. وخصلته المميزة أنه خلق ما يشبه الأصالة حين أطلق اسمًا غريب الشكل على مسميات قد درسها غيره بتعمق واستفاضة. وتسميته «الشعور المحيطى» هى مجرد اسم آخر للخبرة الصوفية، وفى رأيه أن ذلك طبيعى وعادى.

إن الخبرة الصوفية (المواجد) هى ممارسة الشعور بالوفاق والانسجام مع اللانهاية. إنها إدراك أو وعى كونى، وشعور بالاتصال بالله وبكل خلقه. إنها شعور بأن للحياة معنى. إنه شعور مفاجىء وفى الغالب قصير الأمد بالوصول إلى حضرة الله.

وإن الفصل الذى كتبه العلامة ويليام جيمس عن التصوف فى كتابه «أنواع مختلفة من الخبرة الدينية» يعتبر أفضل ما كتب فى هذا المعنى. ومن كان يريد أن يعرف شيئًا أكثر عن التصوف من الناحية النظرية والعملية فسيجد هذا الفصل ممتعًا ميسور القراءة والفهم.

فلماذا يحدث أن كثيرًا من الأشخاص واسعى الاطلاع الودودين حسنى النية يرفضون الدين كلية؟ مع أنه كلما زاد إحساس المرء بأفكار ومشاعر المجتمع الذى يعيش فيه زادت حاجته إلى الدين كمنبع للقوة وعامل مؤد للاستقرار فى الحياة. فلماذا إذًا لا يطيقون حتى مجرد ذكر الاسم.

وإليك قليلا من الصور الخاطفة لأناس عالجتهم وكان باستطاعتهم الاستفادة من الدين ولكنهم كانوا يرفضونه. فواحد من هؤلاء يقول: «إننى لا أطيق نفاق أولئك الذين يؤمون الكنائس. إنهم يلبسون للكنيسة أحسن أزيائهم ويشعرون بالتعالى والزهو والغرور لمدة نصف يوم فى الأسبوع، أما فى بقية الأسبوع فهم نشيطون فى فسقهم وفى غشهم فى أعمالهم وصفقاتهم وفى تبلد إحساسهم لمطالب غيرهم من الناس. إنهم يستعملون الكنيسة كواجهة، مجرد واجهة محترمة ليرتكبوا وراءها عمل الشيطان.

إن لهذه الكلمات وقعًا خاصًا مألوفًا. فنفس الفكرة قد عبر عنها العهد الجديد بطريقة أبرع من ذلك فى كتبه الأربعة الأولى.

ويقول شخص آخر: «إن الدين يسفه العقل. فقد مرت قرون كان فيها الدين هو الذى يحارب كل محاولة لتحرير عقل الإنسان».

وفى هذا بعض الحقيقة - كما أن فيه بعض التضليل. صحيح أن الكنائس ومنظماتها وأفكارها نادرًا ما تخلو من الخرافات والدعاوى المبهمة. وعلى المنظمات الدينية أن تحاول أن تخلص نفسها من الخرافات والمعارضة الغبية للتقدم. ولكن يجب ألا ننسى أن الكنائس هى التى أنقذت حصاد الحضارة الذى لا يقوَّم بمال من الفناء على يد برابرة أوربا حين اكتسحوا الإمبراطورية الرومانية وأدخلوا فى إبان العصور المظلمة التى استمرت ألف سنة من الإكراه بالقوة الغشوم والخسة وشيوع الخرافات الذى لا نزال نعانى منه حتى الآن.

وبعض مرضاى يرون فى الدين صورة من التعصب الذى كان عند الآباء والوعاظ. وكما أن صبية كاثوليكية تركت الكنيسة بسبب تجارب مكدرة مرت بها فى المدرسة. وأخبرنى ملحد بروتستانتى أنه ألقى فى روعه أن الله يتبع الأطفال وفى يده كتاب أسود يدون فيه سيئاتهم وفى يده الأخرى سوط. وما زال حتى هذه اللحظة لا يطيق وقوف أحد خلفه. وأخبرتنى ملحدة بروتستانتية أخرى أنه كان يحرم عليها وهى طفلة أى حق فى الاستمتاع. فالله - كما أخبروها - لا يحب أن يرى الناس يقضون وقتًا طيبًا. ألا ترى لماذا أصبحت تتعصب ضد الكنيسة؟ وأظن أن أباها وواعظها لم يسمعا أبدًا عن المعجزة فى حفلة الزواج فى سانا.

وهناك يهودى ملحد يربط بين الدين والاضطهاد والخرافات السخيفة وهذا أيضًا مفهوم ومعذور. فلقد ظللت لعدة سنوات أظن أن مذهبًا كاثوليكيًا معينًا قد تخصص فى تعليم الأطفال أن يضربوا الأطفال الذين التحقوا بالمدارس العامة. واليوم أقدر ما فعلته مجموعة «الأخوات» فى تهذيب أولئك الأوغاد. إننى لم أتصور أبدًا أن أعيش حتى أرى اليوم الذى تقف فيه الكنائس الأرثوذكسية بصلابة ضد التمييز العنصرى.

فهناك عنصر مشترك فى كل هذه الحالات - وهو ما يسميه الكونت ألفرد كورزيافسكى الربط الضال. والربط الضال هو الذى يجعل إنسانًا ما يقطع كل الأشجار فى بستانه لا لشىء إلا لأن بعض الثمار قد وجد فيها دودًا. وربما قلت: إن هذا الرجل لم يكن على حظ موفور من الذكاء وأنا أوافقك. أما بالنسبة لى فترتبط عندى فكرة الدين بأى عضو أو مجموعة من الأعضاء المنتمين للكنيسة. إننى محتاج للدين لتنظيم حياتى وكون بعض الناس منافقين من الناحية الدينية ليس سببًا يمنعنى من إشباع حاجتى.

إن هذا الربط الخاطئ بين الدين والكفر والجهل والخرافة والتعصب له أو ضده والاضطهاد إنما هو نتيجة مباشرة لتجارب مُعطبة للنفوس لاقاها هؤلاء الناس من آبائهم أو زعمائهم وقادتهم الروحيين أو مدرسيهم. وهذا شىء يجب أن يفكر فيه القادة الدينيون. فالمشكلة مشكلة حقيقية واقعية ولكنها مشكلة لا يعالجها بكفاية وفاعلية إلا رجال الدين. وطبيعى أن ينتظر رجال الدين كواجب أن يعاونهم المجتمع بأسره وفيه الأطباء النفسيون الذين يقدرون المسئولية.

إن أى طبيب نفسي يقول عن الدين إنه وهم وصورة خادعة إنما يتسبب لمرضاه ولمهنته وللمجتمع عامة في أذية بالغة.

ولابد من كلمة تعقيبًا على ما يقال من أن الدين هو مخدر للجماعات. وأنا لست متأكدًا من ماهية هذه الجماعات ومَن تكون بالضبط. فهل المقصود الجماعات التى تحضر مباراة دولية فى الكرة؟ أو هى الجماعات التى تملأ المترو فى ساعات الازدحام؟ أو الازدحام الذى يحدث فى المرور فى أيامٍ الآحاد؟ حسنًا، إن قليلا من التدين لو استعملته هذه الجماعات وأنا جزء ضئيل منها بتَرَوٍ وحكمة فإنه لا يفعل فعل المخدر وإنما يفعل فعل الأدهنة الملطفة التى تجعل الموقف محتملا.

وبعض الناس قد يعرف الجماعات بأنها أى مجموعة من الناس العاديين الذين لا نعرفهم جيدًا. فإذا كان الأمر كذلك فإن إخبار هؤلاء الناس بأن كل فرد منهم يتساوى مع غيره فى كونه عزيزًا على الله من شأنه أن يحفزهم لا أن يحذرهم. وفى كل أنحاء العالم التى اخترقها نور الهداية الدينية تهب الناس مطالبة بالاحترام والكرامة التى هى حق لعبيد الله سبحانه وتعالى.

وفى عام ٤١٠ ميلادية عبرت جحافل القبائل البربرية المسماة الوندال – عبرت جبال الألب وهبطت على روما المدينة الخالدة. وكان هؤلاء الوندال وهم أوربيون أميّون رجالا ونساء لا يعرفون النظافة ولا التعليم ولا الإيمان بالله. وما إن دخلوا روما حتى أعملوا فيها النهب والسلب والاغتصاب والتدمير بطريقة جنونية. لقد دمروا ما هو أغلى من متاع الدنيا، دمروا نتاج عقول الناس وكدهم. لقد فعلوا ما هو أكثر من القتل والتشويه. لقد قضوا على حضارة. وذهب معها الفن والعلم والأدب والموسيقى والقانون والنظام والدين، ودفنت جميعها تحت الركام المتداعى من حريق روما.

وبعدها ولمدة تزيد على ألف عام ظلت أوربا فى حالة فوضى. وتاريخ أوربا مرصع بقصص الأوغاد من رجال العنف الذين عاشوا بالقتل والحرب وباستغلال كل من وقع فى أيديهم. فلم يكتب أى كتاب، ولم يقم بناء، وخبت نار الفن والعلم تحت أكوام الرماد الذى خلفه برابرة أوربا أنى ذهبوا.

ولكن شعلة الحضارة التى خلقت جزءًا جزءًا قبل عهد الوندال ظلت قائمة. فأين صينت الحضارة؟ ومن الذى أبقى على حياة كل ما فى الحياة البشرية مما يستحق أن نعيش من أجله؟

لقد صان الحضارة بيوت الدين اليهودية والإسلامية والكاثوليكية. وكل شىء عندنا اليوم – حكومتنا، قوانيننا الخلقية، الفنون، العلوم – كلها ندين بها لأولئك النفر القلائل الذين ساروا

مع الله. ومن الاطمئنان الذى يجلبه الإيمان الدينى القوى. وجدوا القوة لحماية أعلى قيمنا الإنسانية من المتوحشين حارقى الكتب.

فإن هؤلاء قاموا على مهل بنشر معارفهم بين الغالبية العديدة الساحقة الجاهلة البليدة التى لا تعترف بالله ولا بالقانون. وأخيراً وعندما يقرب عام ١٤٠٠ ميلادية أى بعد حوالى ألف عام من تدمير روما بدا بصيص النار الخامدة يتوهج ويصير شعلة. وبرزت أعمال المئات من سدنة الحضارة الذين انقطعوا فى عزلة لحماية الحضارة وصيانتها. وقامت حركة إحياء للعلم والتعليم يمكن أن نعتبرها حركة بعث إن كان هناك بعث فى الدنيا. ومرة أخرى أصبح البشر أكثر من مجرد حيوانات مفترسة تعيش بالسلب والنهب وأضحوا أفضل من مجرد قتلة لجنسهم ونوعهم.

ولكن الأمر احتاج إلى أكثر من ألف عام لكى يعتنق الدين عدد ملحوظ من المتوحشين الأوربيين ويسيروا فى طريق الحضارة والأدب والعمارة والموسيقى والعلم — والدين. وماذا عن أولئك الذين لم يتحولوا ابدا إلى الدين؟

إن العالم الغربى لم يهضم بعدُ الديانات العظيمة التى نشأت فى الشرق الأوسط. إنه لم يخرج بعدُ من العصور المظلمة.

وما على أى إنسان يعتقد أن الوندال لا يعيشون بيننا إلا أن يزور منتزه بوسيميث الوطنى فى صبيحة يوم الاثنين (أى بعد عطلة الأسبوع مباشرة) ويرى بنفسه صفائح الجعة (البيرة) الفارغة التى تشوه وجه هذه البحيرات والقنوات الجميلة الحبيبة.. لقد كانت المغارات أول معابد الإنسان. ومازال الوندال يدنسون هذه المعابد.

أما فيما يتصل بالدين فكم من الناس يشعرون بالحضرة الإلهية وهم يذهبون إلى أعمالهم فى سياراتهم؟ ولو أن أحد الشخصيات السياسية الهامة كانت تركب بجوارهم لرأيت كيف يكون حرصهم وأدبهم وذوقهم فى القيادة! ولكن هل يشعرون بحضرته سبحانه وتعالى وهم يقطعون الطريق نهباً؟

إن الإيمان بالله أعمق وأرسخ جذوراً من مجرد العضوية فى الكنيسة. ولكى نحظى بالإيمان الحق ونستمتع به فيجب على كل فرد أن يعيش عقيدته الدينية فى الأربع والعشرين ساعة. فبهذا فقط يمكن أن نحصل على الراحة والاطمئنان وروح المرح والصحة الجيدة التى هى حق لكل واحد منا.

واليك وصفتى لقوة الشخصية عن طريق الإيمان بالله:

القاعدة رقم ٥

١ — اعتقد بصفة شخصية خاصة فى الله الذى جعل أحسن وأرق ما فيك.

٢ — ذكر نفسك باستمرار بحضرة المولى سبحانه وتعالى ولن تشعر بالوحدة أو الوحشة بعد ذلك أبدًا.

٣ — انضم إلى كنيسة أو إلى أية جماعة دينية، من تلك التى لا تعنف مع منطقك العقلى أو مبادئ العلم الطبيعى الحديث.

وواضح أنه ليس من مسئوليات الطبيب النفسى أن يشير على مريضه أية كنيسة ينضم إليها. فهذا الموضوع متروك لكل فرد لكى يقرب بنفسه ولنفسه. وكما يقول اليوم الدكتور جولز ماسرمان أستاذ الطب النفسى فى جامعة نورث وسترن: «... حقًا لكى تساعد إنسانا يجب أن تعاونه فى إعادة بناء عالمه الخاص من الحقائق والخيال، وعلى قدر عقليته ما أمكن، إيمانه الخاص بنفسه وبمن حوله من البشر وبالله حسب تصوره الخاص لجلاله سبحانه وتعالى».

فالدين — مثل العلم والفن — طريقة للحياة وأسلوب للعيش. إنه البحث عن الحقائق السرمدية الخالدة والجمال والخير. إنه بحث ليست له نهاية لأنه يتطلب جهدًا خلاقًا. وكما يعلم كل عالم وفنان أن كل محاولة ناجحة تخلق الحاجة إلى خلق جديد أكبر وأقرب إلى الكمال. ومن وجهة النظر الأخلاقية فإن الدين هو الجهد الدائم الفعال فى خلق فرص أكبر وأسمى أمام إنسان فى الدنيا لكى يصل إلى قمم جديدة من الخبرة ذات المعنى والتعبير عن النفس البناءة.

إن التحدى العظيم أمام القادة والزعماء الدينيين هو تحرير العقل البشرى من الخرافات الوثنية وإيضاح النواحى الأخلاقية فى الدين وإبرازها والتشديد عليها. وليس عليهم أن يدافعوا عن الدين، فقادة البشر من العلميين سيحملون هذا العبء عنهم.

إن النظرة الدينية السليمة تبعث الهدوء والسلامة والراحة فى العقل المضطرب. فلا أحد يدرى ماذا سيكون أمره بعد عشر سنوات من الآن، ولكن كل إنسان يستطيع أن يعرف ما يعمله فى التو واللحظة. إن من الحماقة أن تسبق الزمن. ولكن من الحكمة أن تنتبه (كما فعل الفيل الذكى الحاذق) للخطوة التالية (وكما يقول الشاعر العربى: قَدِّرْ لرجلك قبل الخطو موضعها) وأنت تعبر الجسر الموصل بين الحاضر والمستقبل. إن الدين يمنحنا الشعور بالاستمساك بحبل المجتمع الذى يربط بين الماضى والمستقبل. ومن كان يحس بهذا الاستمساك والترابط استطاع أن يعيش فى أمن وهدوء مدركا بأن يد الله ستقوده وتهديه.

المؤلف

الدكتور دافيد هارولد فينك حصل على بكالوريوس آداب والماجستير فى الآداب من جامعة ميتشجان. وقام بتدريس علم الاجتماع هناك ثم دخل ميدان الخدمة الاجتماعية. وبعد سنوات عديدة أدرك أن اهتمامه العميق بمشاكل البشر لا يمكن إشباعه إلا إذا كان فى أحسن وضع يمكنه من استكشاف العقل الإنسانى – أى بعبارة أخرى إذا كان طبيبًا. فترك عمله والتحق بكلية ديترويت للطب والجراحة حيث تخرج فيها فى عام ١٩٢٩. وظل ثمانى سنوات يعمل كطبيب فى مستشفيات المحاربين القدماء. ومارس طب النفس والأعصاب فى تل بيفرلى (حيث يقطن كبار نجوم السينما) بكاليفورنيا. وقد كتب مقالات كثيرة، وألف كتابين قبل هذا الكتاب – هما: «التخلص من التوتر العصبى» سنة ١٩٤٣، و«كن على سجيتك الحقيقية».